بادر
بالتوبة والندم
قبل أن
تندم
فلا ينفع الندم
الشيخ
ندا أبو أحمد

بادر بالتوبة والندم قبل أن تندم فلا ينفع الندم

الشيخ/ندا أبو أحمد

بادر بالتوبة والندم

قبل أن تندم فلا ينفع الندم

تمهيد

إنَّ الحمدَ لله نحمدُه، ونستعينُه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، مَن يهد اللهُ فلا مضل له، ومَن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمدًا عبدهُ ورسولُه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: 102)

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (النساء:1)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (70) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ (الأحزاب:70،71)

أما بعد....

فإن أصدق الحديث كتاب الله ـ تعالى ـ، وخير الهدي، هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

نبض الرسالة

بادر بالتوبة والندم قبل أن تندم فلا ينفع الندم

1- الندم يوم القيامة على عدم طاعة الله تعالى:

2- الندم يوم القيامة على عدم الإخلاص في الطاعة:

3- الندم يوم القيامة على عدم اتِّباع النبي ﷺ:

4- الندم يوم القيامة على أوقات مرت في الدنيا بغير ذكر الله تعالى:

5- الندم يوم القيامة على ضياع الحسنات:

6- الندم يوم القيامة على عدم الإنفاق في الدنيا:

فلا تبخل بزكاتك حتى لا تندم يوم لا ينفع الندم

الزكاة من أعظم الأسباب الجالبة لرحمة الله تعالى:

الزكاة سبيل لدخول الجنة، بل الزكاة ترفع صاحبها في أعلى درجات الجنة:

فمن تصدق بصدقةٍ يخلف الله عليه بأفضل منها:

المتصدق بصدقة من كسبٍ طيبٍ يقبلها الله ويربيها له حتى تكون يوم القيامة مثل الجبل:

الصدقة هي مال الإنسان الحقيقي التي يؤجر عليها، وهي الباقية عند الله تعالى:

الصدقة وقاية وحجاب من النَّار:

7- الندم يوم القيامة على أكل الحرام:

8- الندم يوم القيامة على مصاحبة أصحاب السوء:

9- الندم يوم القيامة على موالاة الكافرين والمنافقين والظالمين:

10- الندم يوم القيامة على ظلم الناس:

خاب وخسر كل مَن ظَلَمَ، ولم يتحلَّل من المظالم في الدنيا:

11- الندم يوم القيامة على تضيع الأوقات في الدنيا:

مشاهد الحسرة والندامة يوم القيامة:

أولًا: الحسرة والندامة عند خروج الروح:

ثانيًا: مشاهد الحسرة والندامة يوم القيامة:

ثالثًا: الحسرة والندامة عند تطاير الصحف:

رابعًا: الحسرة والندامة: عند مجيء جهنم:

خامسًا: الحسرة والندامة يوم القيامة لكل من اتبع الشيطان:

سادسًا: ندم وحسرات أهل النار:

فعلينا بالتوبة والندم قبل حلول الأجل، قبل أن يندم المفرط يوم القيامة فلا ينفع الندم:

مقدمة:

– إننا في حاجة شديدة لتذكُّر يوم القيامة– يوم الحسرة والندامة– في عصر طغت فيه المادِيَّات، وكثرت فيه الشهوات وانصرف كثير من الناس عن منهج رب الأرض والسماوات.

– قست مِنّا القلوب، وتحجرت العيون، وهُجِر كتاب علاَّم الغيوب، بل قُرئ والقلوب لاهية ساهية، وفي لجج الدنيا وأوديتها سابحة.

– زيَّنا جدران بيوتنا بآيات القرآن ولم نزيِّن به حياتنا، يقرأه البعض منا على الأموات ثم لا يحكمونه في الأحياء.

– غفلنا وهذه مصيبة، والمصيبة الأدهى والأعظم أننا لا نشعر أننا غفلنا، هبَّت رياح المعصية فأطفأت شموع الخشية من قلوبنا وطال علينا الأمد.

– لهذا كله كان لابد من الوقوف على بعض مشاهد الندم والحسرة يوم القيامة، عسى أن ننتهي عن الذنوب وتلين منا القلوب، وتستيقظ وتخشع وتذل النفوس، وننتبه من الغفلة، فأصل المصائب وارتكاب الذنوب وفعل المعايب الغفلة عن الآخرة.

– فذِكر اليوم الآخر يُطهِّر القلوب من الحسد والفرقة والاختلاف.

– وذِكر اليوم الآخر يهدد الظَلَمَة ليكفوا ويرتعدوا، ويُعزي المظلومين ليسكنوا، فكل سيأخذ حقه لا محالة حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء فلا ظلم ولا هضم.

– ذِكْر اليوم الآخر يمسح على قلوب المستضعفين والمضطهدين والمظلومين مسحة يقين تسكن معه القلوب؛ لأنهم يتطلعون لما أعده الله للصابرين من نعيم يُنْسَى معه كل ضرٍّ وبلاء، وسوء وعناء، ويُهوِّن عليهم ويعزيهم ما أعده الله للظالمين من بؤس وشقاء يُنْسَى معه كل هناء.

فهيا معي أخي الحبيب... لنقف على مشاهد الحسرة والندم يوم القيامة، قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ﴾(مريم:39) إنه إنذار وإخبار، وتخويف وترهيب من يوم الحسرة والندامة حين يُقضى الأمر، عندما يَجْمَعُ الله الأولين والآخرين يوم القيامة ويسألهم عن أعمالهم، فمن خالف هواه وأطاع مولاه سعد سعادة لا يشقى بعدها أبدًا، ومن خالف مولاه واتبع هواه ورضي بدنياه شقي وتحسَّر وندِم لأنه لم يستعد للميعاد، ولم يستكثر من الزاد، وأي حسرة وندم أعظم من فوات رضا الله وجنَّته، واستحقاق سخطه وناره؟! إنه الندم والحسرة؛ لأنه لا إلى دنياه عائد، ولا في حسناته زائد. أسأل الله لنا ولكم ألا نكون من أهل الحسرة والندامة، ولعلَّ هذا الموضوع تنصلح به القلوب، وتتجه إلى علام الغيوب، وتنقاد الجوارح إلى العمل الصالح.

1- الندم يوم القيامة على عدم طاعة الله تعالى:

انظر أخي الحبيب عندما يدخل القبرَ العبدُ المُفرِّط المُسيء، المسرف على نفسه، ويسأله الملكان فلا يجيب، فيُضرَب بمطرقة من حديد، لو ضُرب بها جبلٌ لصار ترابًا، ثم يَرَى مقعده في الجنة، ويُقال: هذا مكانك لو أطعت الله، فيتحسَّر ويندم يوم لا ينفع ندم لأنه لا إلى دنياه عائد، ولا في حسناته زائد، ثم يصرخ ويقول: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ (99) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ (المؤمنون:99،100) إنها الحسرة على التفريط

في طاعة الله، وتصرُّم وانقضاء العمر القصير في اللهث وراء الدنيا حلالها وحرامها، والاغترار بزيفها مع نسيان الآخرة وأهوالها. قال تعالى:﴿حَتَّى إِذَا جَاءتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلاَ سَاء مَا يَزِرُونَ ﴾ (الأنعام:31)

قال ابن القيم–رحمه الله–عن قوم لوط:" قلب الله سبحانه عليهم ديارهم، فجعل عاليها سافلها، فجعلهم آيةً للعالمين، وموعظةً للمتقين، ونكالًا وسلفًا لمن شاركهم في أعمالهم من المجرمين، أخذهم على غِرَّة وهم نائمون، وجاءهم بأسُه وهم في سكرتهم يعمهون، فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون، فانقلبت تلك اللذَّات آلامًا فأصبحوا بها يعذبون، تمتَّعُوا قليلًا وعُذِّبوا طويلًا، رتعوا مرتعًا وخيمًا، فأعقبهم عذابًا أليمًا، أسكرتهم خمرة تلك الشهوة، فما استفاقوا منها إلا في دار المعذبين، وأرقدتهم تلك الغفلة فما استيقظوا إلا وهم في منازل الهالكين، فندموا والله أشد الندامة حين لا ينفع الندم، وبكوا على ما أسلفوه بدل الدموع دمًا ". اهـ

والعاصي المفرط سوف يندم حين يرى العذاب يوم القيامة، لكن لا ينفع ساعتها ندم:

قال تعالى:﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (56) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (57) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (الزمر:56 – 58)

وقال تعالى: ﴿وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ ﴾ (سبأ: 33)

قال الإمام الطبري–رحمه الله– في تفسير الآية:" ندموا على ما فرطوا من طاعة الله في الدنيا حين عاينوا عذاب الله الذي أعَدَّه لهم ".

وقال الشيخ ابن عثيمين–رحمه الله–:" وأسرُّوا الندامة؛ لكن والله لا ينفع الندم حينذاك، فالندمُ حين يرى الإنسانُ العذاب لا ينفعه، إنما ينفع قبل أن يرى العذاب– أي قبل يوم القيامة– ".

2- الندم يوم القيامة على عدم الإخلاص في الطاعة:

الندم يوم القيامة على أعمال صالحة كدَّرتها مبطلات الأعمال: من رياء وعُجْبٍ ومنَّة فضاعت وصارت هباءً منثورًا في وقت الإنسان أشد ما يكون فيه إلى حسنة واحدة. قال تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ(47)وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (الزمر:47، 48)

وأخرج الإمام أحمد عن محمود بن لبيد ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ قال:" إنَّ أخْوَفَ ما أخافُ عليكم الشِّركُ الأصْغَرُ[1]، قالوا: وما الشِّركُ الأصْغَرُ يا رسولَ اللهِ؟ قال: الرِّياءُ؛ يقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ لهم يومَ القِيامةِ إذا جُزِيَ الناسُ بأعمالِهم: اذْهَبوا إلى الذين كنتُم تُراؤون في الدُّنيا، فانظُروا هل تَجِدون عِندَهُم جزاءً؟! ". (صحيح الترغيب والترهيب: 32)

وانظر لهؤلاء الذين عملوا أعمالًا جليلة عظيمة ولكن خلت أعمالهم من الإخلاص، فكيف كان حالهم؟

1– وسمَّاهُ أصغرَ؛ لأنَّ العَبدَ لم يَكفُرْ باللهِ، ولم يُنكِرْ أُلوهيَّتَهُ، ولكنَّه برِيائِهِ أشرَكَ مع اللهِ غَيرَهُ، والرِّياءُ: تَركُ الإخْلاصِ في الأقْوالِ والأعْمالِ، بأنْ يقولَ قَولًا أو يَعمَلَ عَمَلًا لا يُريدُ به وَجْهَ اللهِ عزَّ وجلَّ، وهذا يُحبِطُ العَمَلَ.

أخرج الإمام مسلم عن أبي هُرَيرةَ ﷺ قال: سَمِعتُ رَسولَ اللهِ ﷺ يَقولُ:" إنَّ أوَّلَ النَّاسِ يُقضى يَومَ القيامةِ عليه: رَجُلٌ استُشهِدَ، فأُتِيَ به، فعَرَّفَه نِعَمَه، فعَرَفَها، قال: فما عَمِلْتَ فيها؟ قال: قاتَلْتُ فيك حَتَّى استُشهِدْتُ، فقال: كَذَبْتَ، ولَكِنَّك قاتَلتَ لأن يُقالَ: جَريءٌ، فقد قيلَ، ثُمَّ أُمِرَ به، فسُحِبَ على وَجهِه، حَتَّى ألقيَ في النَّارِ. ورَجُلٌ تَعَلَّمَ العِلمَ وعَلَّمَه، وقَرَأَ القُرآنَ، فأُتِيَ به، فعَرَّفَه نِعَمَه، فعَرَفَها، قال: فما عَمِلْتَ فيها؟ قال: تَعَلَّمتُ العِلمَ وعَلَّمْتُه، وقَرَأتُ فيك القُرآنَ، قال: كَذَبتَ، ولَكِنَّك تَعَلَّمتَ العِلمَ ليُقالَ: عالِمٌ، وقَرَأتَ القُرآنَ ليُقالَ: هو قارِئٌ، فقد قيلَ، ثُمَّ أُمِرَ به، فسُحِبَ على وَجهِه، حَتَّى ألقِيَ في النَّارِ. ورَجُلٌ وَسَّعَ اللهُ عليه، وأعطاه من أصنافِ المالِ كُلِّه، فأُتِيَ به، فعَرَّفَه نِعَمَه، فعَرَفَها، قال: فما عَمِلْتَ فيها؟ قال: ما تَرَكتُ من سَبيلٍ تُحِبُّ أن يُنفَقَ فيها إلَّا أنفَقْتُ فيها لَك، قال: كَذَبتَ، ولَكِنَّك فعَلْتَ ليُقالَ: هو جَوادٌ، فقد قيلَ، ثُمَّ أمِرَ به فسُحِبَ على وَجهِه، ثُمَّ ألقِيَ في النَّارِ ".

فعليك أخي الحبيب بالإخلاص، فإنه لا خلاص لك يوم القيامة إلا بالإخلاص:

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ(11) وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ(12) قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ(13) قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي﴾ (الزمر: 11 – 14).

قال الفُضَيلُ بنُ عِياضٍ في قَولِه تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾:" أخلَصُه وأصوَبُه؛ فإنَّ العَمَلَ إذا كان خالصًا ولَم يَكُنْ صَوابًا لَم يُقبَلْ، وإذا كان صَوابًا ولَم يَكُنْ خالصًا لَم يُقبَلْ، حَتَّى يَكونَ خالصًا صَوابًا، والخالِصُ إذا كان للهِ، والصَّوابُ إذا كان على السُّنَّةِ ". (حلية الأولياء لأبي نعيم:8/ 95)

وأخرج النَّسَائِيُّ والطبرانيُّ عن أبي أُمامةَ الباهليّ ﷺ قال:" جاء رجلٌ إلى النَّبيّ ﷺ، فقال: أرأيتَ رَجُلًا غزا يلتَمِسُ الأجرَ والذِّكرَ، ما له؟ فقال رَسولُ اللهِ ﷺ: لا شيءَ له، فأعادها ثلاثَ مرَّاتٍ، يقولُ له رَسولُ اللهِ ﷺ: لا شَيءَ له، ثم قال: إنَّ اللهَ لَا يَقْبَلُ مِنَ الْعَمَلِ إلَّا مَا كَانَ لَهُ خَالِصًا، وَابْتُغِيَ بِهِ وَجْهُهُ ". (صحيح الترغيب:1331) (صحيح الجامع:1856)

والإخلاص سببٌ للنجاة من النار، ودخول الجنة:

قال تعالى عن إلياس وقومه: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (127) إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ (الصافات: 127، 128) وقوله سبحانه وتعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ أي للعذاب يوم القيامة، ثم استثنى عباد الله المخلصين" فإنهم لا يخلص إليهم كدر أو عذاب. (انظر تفسير ابن كثير: 19/4)

3- الندم يوم القيامة على عدم اتِّباع النبي ﷺ:

فالندم يوم القيامة يكون على أعمال محدثة، وعبادات لم يأذن اللهُ بها ولم يُتبع فيها رسول الله ﷺ، ويحسب أهلها أنهم يُحسنون صنعًا، لكنها تضيع في وقت الحاجة الماسَّة إليها، فهم الأخسرون أعمالًا وساءوا أحوالًا.

قال تعالى:﴿أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ﴾ (إبراهيم:18)

وقال تعالى:﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُورًا ﴾ (الفرقان:23)

وقد جاء في الحديث الذي أخرجه البخاري من حديث عائشة–رضي الله عنها– قالت: قال رسول الله ﷺ:" من أحدَث في أمرِنا– أو دينِنا– هذا ما ليس فيه فهو رَدٌّ ".

– وفي لفظٍ:" من عمل عملًا ليس عليه أمرُنا فهو رَدٌّ ". (رواه مسلم)

فيا حسرة من عمل أعمالًا يرجو منها المثوبة والأجر يوم القيامة، فتُرد عليه لعدم موافقتها لهدي وسنة النبي ﷺ.

ويا حسرة مَن رأى النبيَ ﷺ على الحوض في عرصات يوم القيامة ثم يُحجز عنه، ثم يُنادي عليهم النبي ﷺ، فتقول الملائكة: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فيقول لهم:" سحقًا سحقًا"– أي بعدًا بعدًا–.

فسيندم يوم القيامة كل من لم يتبع النبي ﷺ، ولكن لا ينفع ساعتها الندم:

قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ (الفرقان: 27).

وقال تعالى عن نبيه: ﴿قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ(39) قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ﴾ (المؤمنون: 39، 40).

4- الندم يوم القيامة على أوقات مرت في الدنيا بغير ذكر الله تعالى:

فقد أخرج الطبراني في" المعجم الأوسط" وأبو نعيم في" حلية الأولياء" واللفظ له والبيهقي في" شعب الإيمان" بسند فيه مقال عن عائشة–رضي الله عنها–عن النبي ﷺ قال:" ما من ساعة تمر بابن آدم لا يُذكر الله فيها إلا تحسَّر عليها يوم القيامة ".

وإن كان الحديث ضعيفًا إلا أن المعنى صحيح وله شواهد كثرة صحيحة، ومنها:

ما أخرجه أبو داود من حديث أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه قال:" مَنْ قَعَد مَقعدًا لَمْ يَذْكُرِ اللهَ فِيهِ؛ كَانِ عَلِيه مِنْ اللهِ تِرَةٌ[1]، ومَنْ اضطَجَعَ مُضَّجَعًا لا يَذْكُرِ اللهَ فِيهِ كَانَت عَلَيهِ مِنَ اللهِ تِرَةٌ، وَمَا مَشَى أَحدٌ مَمْشًى لِمْ يَذْكُرِ اللهَ فِيهِ؛ إِلَّا كَان عَلَيه مِنَ اللهِ تِرَةٌ ". (صحيح الجامع:6477) (الصحيحة:78)

وأخرج الطبراني في الكبير والبيهقي في" الشعب" من حديث مُعاذ بن جبل ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:

" لَيْسَ يَتحَسَّر أَهْلُ الجَنَّةِ[2] إلا عَلَى سَاعَةٍ مَرَّتْ بِهِمْ وَلَمْ يَذْكُرُوا اللهَ تَعَالى فِيهَا[3]". (صحيح الجامع: 5446) (الصحيحة:2197)

1- الترة: الحسرة.

2- قال المناوي–رحمه الله–:" ليس يتحسر أهل الجنة على شيء، مما فاتهم في الدنيا، إلا على ساعة مرت بهم لم يذكروا الله عز وجل فيها؛ أي: احتسابًا، وتقربا إليه. وذلك لأنهم لما عرضت عليهم أيام الدنيا، وماذا خرج لهم من ذكر الله تعالى، ثم نظروا إلى الساعة الأخرى التي حُرموا فيه الذكر، مما تركوه من ذكره، فأخذتهم الحسرات. لكن هذه الحسرات إنما هي في الموقف، لا في الجنة. والغرض من السياق أن تعلم أن كل حركة ظهرت منك، بغير ذكر الله؛ فهي عليك، لا لك. وأن أدوم الناس على الذكر، أوفرهم حظا، وأرفعهم درجة، وأشرفهم منزلة ". اهـ (فيض القدير:5/390).

3- قال المنذري– رحمه الله– في الترغيب والترهيب:2312: "رَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ عَن شَيْخه مُحَمَّد بن إِبْرَاهِيم الصُّورِي، وَلَا يحضرني فِيهِ جرح وَلَا عَدَالَة، وَبَقِيَّة إِسْنَاده ثِقَات معروفون وَرَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ بأسانيد أَحدهَا جيد". اهـ والحديث صححه الألباني– رحمه الله– في (السلسلة الصحيحة)، و(صحيح الجامع: 5446)، ثم تراجع عن ذلك وضعفه في (السلسلة الضعيفة:4986).

وأخرج الإمام أحمد وأبو داود من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:" ما من قومٍ يقومونَ من مجلسٍ لا يذكرونَ اللهَ فيهِ إلا قامُوا عن مثلِ جيفةِ حمارٍ[1]، وكان لهم حسرةً[2] ". (صحيح أبي داود: 4855)

وأخرج الترمذي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:" مَا جَلَسَ قَوْمٌ مَجْلِسًا لَمْ يَذْكُرُوا اللَّهَ فِيهِ، وَلَمْ يُصَلُّوا عَلَى نَبِيِّهِمْ، إِلَّا كَانَ عَلَيْهِمْ تِرَةً، فَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُمْ وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُمْ[3] ". (صححه الألباني في" صحيح الترمذي")

قال عمر بن عبد الله–رحمه الله– مولى غفرة بنت رباح–أخت بلال–:" إِذَا انْكَشَفَ الغِطَاءُ للنَاسِ يَوْمَ القِيَامَةِ عَنْ ثَوَابِ أَعْمَالِهِمْ، لَمْ يَرَوْا أَفْضَلَ مِنَ الذِّكْرِ، فَيَتَحَسَّرُ عِنْدَ ذَلِكَ أَقْوَامٌ فَيَقُولُونَ: مَا كَانَ شَيءٌ أَيْسَرَ عَلَيْنَا مِنَ الذِّكرِ".

فالذكر عبادة ميسرة وقد جعل الله تعالى الذكر باللسان وهو أخف جارحة في الإنسان، وهو الذي لا يكلُّ ولا يملُّ إذا ظل الإنسان طوال ليله ونهاره يذكر الله، ومع كون الذكر أيسر العبادات وأخفها مؤنة ومشقة ومع ذلك فهو أعظمُها أجرًا.

فقد أخرج البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:" كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي المِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللهِ العَظِيمِ ".

وفي حديث عند الترمذي من حديث جابر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:" مَنْ قَالَ سُبْحَانَ اللهِ العَظِيمِ وَبِحَمْدِهِ، غُرِسَتْ لَهُ نَخْلَةٌ فِي الجَنَّةِ ".

1– إلَّا قاموا عَنْ مِثْلِ جيفةِ حِمارٍ: أي عن مِثْلِ مَنْ أَكَلوا لَحْمَ حِمارٍ مَيِّتٍ، وما فيها مِن القَذَرِ والنَّجاسةِ.

2– وكان لهم حَسْرةً: أي كان هذا المَجْلِسُ الَّذي لم يَذْكروا اللهَ فيه حَسْرةً ونَدامةً عليهم؛ لِما فوَّتوه على أَنْفُسِهم مِن أَجْرِ الذِّكْرِ.

3– وقوله ﷺ:" إن شاء عذبهم، وإن شاء غفر لهم": نص في أن ذلك إنما يكون في موقف الحشر يوم القيامة، قبل مصير الناس إلى منازلهم؛ وإلا، فمن كان في الجنة، لم يبق عليه شيء من الذنب، ليكون في المشيئة: أن يغفر له؛ ثم من دخلها، لا يخرج منها أبدا، ولا يقال فيه: إن شاء عذبه!! وهذا واضح جدا، إن شاء الله.

فأي مجهود بذله الإنسان وهو يردد هذا الذكر، لكن انظر إلى الأجر العظيم والفضل الكبير المترتب عليه ولا تتعجب، لأننا نتعامل مع الكريم سبحانه.

وأخرج الترمذي وابن ماجه من حديث أبي الدرداء ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:" أَلَا أُنَبِّئُكم بِخَيْرِ أعمالِكُم، وأَزْكاها عِندَ مَلِيكِكُم، وأَرفعِها في دَرَجاتِكُم وخيرٌ لكم من إنْفاقِ الذَّهَب والوَرِقِ، وخيرٌ لكم من أن تَلْقَوا عَدُوَّكم، فتَضْرِبوا أعناقَهُم، ويَضْرِبوا أعْناقكُم؟! قالوا: بَلَى، قال: ذِكْرُ اللهِ ". (صحيح الجامع: 2629) (صحيح الترغيب والترهيب: 1493)

5- الندم يوم القيامة على ضياع الحسنات:

أخرج ابن ماجه من حديث ثوبان ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:" لأعلمنَّ أقوامًا من أمتي يأتون يومَ القيامةِ بحسناتٍ أمثالِ جبالِ تهامةَ بيضًا فيجعلُها اللهُ عزَّ وجلَّ هباءً منثورًا، قال ثوبانُ: يا رسولَ اللهِ! صِفْهم لنا، جَلِّهم لنا، أن لا نكونَ منهم ونحنُ لا نعلمُ، قال أما إنهم إخوانُكم ومن جِلدتِكم، ويأخذون من الليلِ كما تأخذون، ولكنَّهم أقوامٌ إذا خَلَوا بمحارمِ اللهِ انتهكُوها ". (صحيح ابن ماجه: 3442)

الحسرة على أعمالٍ صالحة كانت الأمل بعد الله، ولكنها ذهبت في ذلك اليوم العصيب إلى من تعدَّى حدود الله فيهم، فظلَمَهم في مالٍ، أو في دمٍ، أو في عرضٍ.

وقد خاب من حمل ظلمًا، فيأخذ هذا من حسناته، وهذا من حسناته، وهذا من حسناته حتى تفنى حسناتُه، ولم يقضِ ما عليه فيطرح عليه من سيئات مَن ظلمهم، ثم يُطرح في النار.

وهذا هو الإفلاس الحقيقي الذي أخبر عنه الحبيب النبي ﷺ. فقد أخرج الإمام مسلم من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال:" أَتَدْرُونَ ما المُفْلِسُ؟ قالوا: المُفْلِسُ فِينا مَن لا دِرْهَمَ له ولا مَتاعَ، فقالَ: إنَّ المُفْلِسَ مِن أُمَّتي يَأْتي يَومَ القِيامَةِ بصَلاةٍ، وصِيامٍ، وزَكاةٍ، ويَأْتي قدْ شَتَمَ هذا، وقَذَفَ هذا، وأَكَلَ مالَ هذا، وسَفَكَ دَمَ هذا، وضَرَبَ هذا، فيُعْطَى هذا مِن حَسَناتِهِ، وهذا مِن حَسَناتِهِ، فإنْ فَنِيَتْ حَسَناتُهُ قَبْلَ أنْ يُقْضَى ما عليه أُخِذَ مِن خَطاياهُمْ فَطُرِحَتْ عليه، ثُمَّ طُرِحَ في النَّارِ".

6- الندم يوم القيامة على حبس الزكاة، وعدم الإنفاق في الدنيا:

قال تعالى: ﴿ وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ (10) وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاء أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (المنافقون:9 -11)

قال السعدي-رحمه الله- في تفسيره:" وقوله تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ يدخل في هذا، النفقات الواجبة، من الزكاة والكفارات ونفقة الزوجات، والمماليك، ونحو ذلك، والنفقات المستحبة، كبذل المال في جميع المصالح، وقال: ﴿مِن مَّا رَزَقْنَاكُمْ﴾ ليدل ذلك على أنه تعالى لم يكلف العباد من النفقة، ما يعنتهم ويشق عليهم، بل أمرهم بإخراج جزء مما رزقهم الله الذي يسره لهم ويسر لهم أسبابه. فليشكروا الذي أعطاهم، بمواساة إخوانهم المحتاجين، وليبادروا بذلك الموت الذي إذا جاء لم يمكن العبد أن يأتي بمثقال ذرة من الخير، ولهذا قال: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ﴾ متحسرًا على ما فرط في وقت الإمكان، سائلًا الرجعة التي هي محال: ﴿رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ أي: لأتدارك ما فرطت فيه، ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾ من مالي، ما به أنجو من العذاب، وأستحق به جزيل الثواب، ﴿وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ بأداء المأمورات كلها، واجتناب المنهيات، ويدخل في هذا، الحج وغيره، وهذا السؤال والتمني، قد فات وقته، ولا يمكن تداركه.

وذكر الزمخشري في تفسير هذه الآية عن ابن عباس-رضي الله عنهما- قال:" تصدقوا قبل أن ينزل عليكم سلطان الموت، فلا تقبل توبة، ولا ينفع عمل. وقال أيضًا:" ما يمنع أحدكم إذا كان له مال أن يزكي، وإذا أطاق الحج أن يحج، من قبل أن يأتيه الموت، فيسأل ربه الكرة فلا يعطاها ."

وأخرج الترمذي عن ابن عباس-رضي الله عنهما- قال:" مَن كان له مال يبلغه حج بيت الله الحرام ولم يحج، أو تجب فيه زكاة ولم يُزكِّ، سأل الله الرجعة عند الموت، فقال له رجل: اتقِ الله يا ابن عباس فإنما يسأل الرجعة الكفار، فقال ابن عباس-رضي الله عنهما-: سأتلو عليك قرآنًا:

قال تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ[1] وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ[2]﴾ (المنافقون:10)

فالله عز وجل يحذرنا حتى لا نقف هذا الموقف، ونندم يوم لا ينفع ندم.

والذي لا يؤدي زكاة ماله يعذب بماله في الآخرة.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (34) يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ (التوبة:34، 35)

وأخرج الإمام مسلم من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:" مَا مِنْ صَاحِبِ ذَهَبٍ وَلَا فِضَّةٍ لَا يُؤَدِّي مِنْهَا حَقَّهَا إلا إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ صُفِّحَتْ لَهُ صَفَائِحُ مِنْ نَارٍ فَأُحْمِيَ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ، فَيُكْوَى بِهَا جَنْبُهُ وَجَبِينُهُ وَظَهْرُهُ، كُلَّمَا بَرَدَتْ أُعِيدَتْ لَهُ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ الْعِبَادِ، فَيَرَى سَبِيلَهُ إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ وَإِمَّا إِلَى النَّارِ....". الحديث

وأخرج البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال:" مَنْ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ مُثِّلَ لَهُ مَالُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شُجَاعًا[3] أَقْرَعَ[4] لَهُ زَبِيبَتَانِ[5] يُطَوَّقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُ بِلِهْزِمَتَيْهِ يَعْنِي بِشِدْقَيْهِ[6] ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا مَالُكَ أَنَا كَنْزُكَ"، ثُمَّ تَلَا: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾. (آل عمران: 180)

فلا تبخل بزكاتك حتى لا تندم يوم لا ينفع الندم

1- أَصَّدَّقَ: أي أؤدي زكاة مالي.

2- وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ: أي أحج، كذا قال الضحاك بن مزاحم عند قوله تعالى: ﴿لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ﴾ قال: فأتصدّق بزكاة مالي ﴿وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ قال: الحجّ. (تفسير الكشاف)

3) الشُجَاعُ: بضم الشين المعجمة وكسرها أي الحية الذكر.

4) الأَقْرَعُ: الذي تمعط شعره لكثرة سمه.

5) زَبِيبَتَانِ: يعني لحمتان على رأسه مثل القرنين، وقيل: زبدتان في الشدقين، وقيل: هما النكتتان السوداوان فوق العين.

6) الشِدْقَانِ: هما لحم الخدين.

واعلم أن الزكاة من أعظم الأسباب الجالبة لرحمة الله تعالى:

وقال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأعراف: 156)

وقال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (النور: 56)

والزكاة سبيل لدخول الجنة:

قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (1) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (2) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (3) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾ إلى قوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (10) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (المؤمنون: 1– 11)

وأخرج الإمام أحمد والترمذي في حديث طويل عن معاذ بن جبل ﷺ قال: قلت يا رسول الله أخبرني بعمل يُدخلني الجنة ويُباعدني من النَّار، قَالَ:" لَقَدْ سَأَلْتَ عَنْ عَظِيمٍ وَإِنَّهُ لَيَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ: تَعْبُدُ اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ، وَتَحُجُّ الْبَيْتَ ". (صحيح الترغيب والترهيب: 739)

وأخرج البخاري ومسلم من حديث أبي أيوب الأنصاري ﷺ أن رجلا قال للنبي ﷺ: أخبرني بعمل يُدخلني الجنة؟ قال:" تَعْبُدُ اللَّهَ وَلاَ تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَّلاَةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَصِلُ الرَّحِمَ ".

بل الزكاة ترفع صاحبها في أعلى درجات الجنة:

فقد أخرج البزار وابن خزيمة وابن حبان عن عَمْرَو بْنِ مُرَّةَ الْجُهَنِيِّ ﷺ قَالَ: جاء رجل من قُضَاعَةَ إلى رسول الله ﷺ فقال: إني شَهِدتُ أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، وصليت الصلوات الخمس، وأديت الزكاة وصمت رمضان وقمته، وأتيتُ الزكاةَ، فقَالَ رسول الله ﷺ:" مَنْ مَاتَ عَلَى هَذَا كَانَ مِنَ الصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ ". (صحيح الترغيب والترهيب: 749)

فلا تبخل بزكاتك فتندم حيث لا ينفع الندم.

بل أريد أن أرتقي بك إلى أن تتصدق من باب النافلة، وفي هذا الفضل الكبير والأجر العظيم.

فمن تصدق بصدقةٍ يخلف الله عليه بأفضل منها:

قال تعالى: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ (سبأ: 39)

فكل من ينفق شيئًا لله فإن الله تعالى يُعوضه خيرًا منه، فإن ينابيع خزائنه لا تنضب، وسحائب أرزاقه سحاءُ الليل والنهار، وكلما أنفق شيئًا، أنفق الله عليه أضعاف ما أنفق.

فقد أخرج البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال:" قَالَ اللَّهُ عز وجل:" أَنْفِقْ يَا ابْنَ آدَمَ أُنْفِقْ عَلَيْكَ" – وفي رواية:" أَنْفِقْ أُنْفِقْ عَلَيْكَ". فمن الذي سينفق عليك؟ إنه الله الكريم العظيم الذي بيده ملكوت السماوات والأرض، فإذا أنفق عليك أكرم الأكرمين فكيف سيكون العطاء؟!

المتصدق بصدقة من كسبٍ طيبٍ يقبلها الله ويربيها له حتى تكون يوم القيامة مثل الجبل:

ودليل ذلك ما أخرجه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:" مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدْلِ تَمْرَةٍ[1] مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ وَلَا يَقْبَلُ اللَّهُ إلا الطَّيِّبَ, وَإِنَّ اللَّهَ يَتَقَبَّلُهَا بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يُرَبِّيهَا لِصَاحِبِهِ كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ[2] حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الْجَبَلِ ".

والصدقة هي مال الإنسان الحقيقي التي يؤجر عليها، وهي الباقية عند الله تعالى:

فقد أخرج البخاري عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:" أَيُّكُمْ مَالُ وَارِثِهِ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ مَالِهِ؟"، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ مَا مِنَّا أَحَدٌ إلا مَالُهُ أَحَبُّ إِلَيْهِ، قَالَ:" فَإِنَّ مَالَهُ مَا قَدَّمَ، وَمَالُ وَارِثِهِ مَا أَخَّرَ".

والصدقة وقاية وحجاب من النَّار:

فقد أخرج البخاري ومسلم من حديث عديّ بن حاتم ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:" مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إلا سَيُكَلِّمُهُ اللَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ، فَيَنْظُرُ أَيْمَنَ مِنْهُ فَلَا يَرَى إلا مَا قَدَّمَ،

---

1) بعَدْلِ تَمْرَةٍ: أي قيمتها، فإذا فتحت العين: يعني المثل، وبكسر العين: يعني الحِمْل، وهذا قول الجمهور، وقال الفراء: بالفتح المثل من غير جنسه، وبالكسر من جنسه، وقيل: بالفتح مثله في القيمة، وبالكسر في النظر. (انظر فتح الباري: 279/3)

وقال ابن الأثير– رحمه الله – في "النهاية 191/3": العِدْلُ والعَدْلُ بالكسر والفتح في الحديث: وهما بمعنى المثل، وقيل: هو بالفتح ما عادله من جنسه، وبالكسر ما ليس من جنسه، وقيل بالعكس. أهـ

2– فَلُوَّهُ: بفتح الفاء وضم اللام وتشديد الواو، وهو المهر كما جاء مفسرًا في رواية الترمذي. وسمي بذلك لأنه يُفْلَي: أي يَفطم، وقيل: هو كل فطيم من ذوات حافر: أي من أولاد ذوات الحافر (انظر النهاية في غريب الحديث:474/3) (شرح النووي:104/7)

وَيَنْظُرُ أَشْأَمَ مِنْهُ فَلَا يَرَى إلا مَا قَدَّمَ وَيَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَلَا يَرَى إلا النَّار تِلْقَاءَ وَجْهِهِ، فَاتَّقُوا النَّار وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ ".

7- الندم يوم القيامة على أكل الحرام:

الندم يوم القيامة على أموال جُمعت من وجوه الحرام: من ربا، ورشوة، وغش، وغصب، وسرقة، واحتيال... وغير ذلك. وقد قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾(النساء:29)

وقال تعالى: ﴿وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة:188)

وأيُّ حسرة أعظم من رجل أخذ مالًا من الحرام، ولم يتحلل منه في الدنيا فيأخذ من حسناته التي طالما تعب فيها، وتُعطى للذين أكل أموالهم بغير حق.

فقد أخرج الشيخان من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال:" مَن كَانَتْ له مَظْلِمَةٌ لأخِيهِ مِن عِرْضِهِ أَوْ شيءٍ، فَلْيَتَحَلَّلْهُ منه اليَومَ، قَبْلَ أَنْ لا يَكونَ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ، إنْ كانَ له عَمَلٌ صَالِحٌ أُخِذَ منه بقَدْرِ مَظْلِمَتِهِ، وإنْ لَمْ تَكُنْ له حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِن سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ فَحُمِلَ عليه ".

يقول القرطبي–رحمه الله– في"كتابه التذكرة ص:240":" فإذا مات الإنسان قبل ردِّ المظالم أحاط به خصماؤه يوم القيامة، فهذا يأخذ بيده، وهذا يقبض على ناصيته، وهذا يتعلق به، وهذا يقول: ظلمتني، وهذا يقول: شتمتني، وهذا يقول ذكرتني بالغيبة، وهذا يقول: استهزأت بي، وهذا يقول: جاورتني فأسأت جواري، وهذا يقول: عاملتني فغششتني، وهذا يقول: بايعتني وأخفيت عني عيب متاعك، وهذا يقول: كذبت عليّ في سعر متاعك، وهذا يقول: رأيتني محتاجًا وكنت غنيًا فما أطعمتني، وهذا يقول: وجدتني مظلومًا وكنتَ قادرًا على دفع الظلم فداهنت الظالم وما راعيتني. فبينما هو كذلك وقد أنشب الخصماء فيه مخالبهم، وهو مبهور متحير من كثرتهم، وقد ضعف عن مقاومتهم، ومد عنق الرجاء إلى سيده ومولاه لعله يخلصه من أيديهم، إذْ قرع سمعه نداء الجبار:﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾ (غافر:17) فعند ذلك ينخلع قلبه من الهيبة، ويتذكر ما قد أنذره الله به على لسان رسول الله ﷺ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ (إبراهيم:42) فما أشد حسرته في ذلك اليوم إذا وقف به على بساط العدل، وأحاط به خصماؤه، وهو لا

يستطيع أن يرد حقًا، أو أن يظهر عذرًا، فعند ذلك تؤخذ حسناته التي تعب فيها عمره وتنقل إلى خصومه عوضًا عن حقوقهم.

فكيف به هذا المسكين في يوم يرى فيه صحيفته خالية من حسنات طال فيها تعبه؟ فيقول: أين حسناتي؟ فيقال: نقلت إلى صحيفة خصمائك. ويرى صحيفته مشحونة سيئات غيره، فيقول: يارب هذه السيئات ما قارفتها قط، فيُقال: هذه سيئات الذين اغتبتهم وشتمتهم وظلمتهم في المعاملة والمبايعة والمجاورة. فاتق الله في مظالم العباد بأخذ أموالهم والتعرض لأعراضهم ". اهـ بتصرف واختصار.

أحبتي في الله: إن التعامل بين الناس في الدنيا يكون بالدرهم والدينار، ولكن في الآخرة سيكون التعامل بالحسنات والسيئات، ورأس مال العبد في هذا اليوم حسناته.

فمن الناس من يأتي بحسنات يوم القيامة، لكن عليه مظالم للعباد، فيأخذون من حسناته بقدر ما لهم من حقوق، فإذا فنيت حسناته وبقي عليه من المظالم، فتؤخذ من سيئاتهم فتطرح عليه، ثم يطرح في النار–عياذا بالله– وهذا هو المفلس الذي أخبر عنه النبي ﷺ كما مر بنا في الحديث الذي أخرجه الإمام مسلم من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال:" أَتَدْرُونَ ما المُفْلِسُ؟ قالوا: المُفْلِسُ فِينا مَن لا دِرْهَمَ له ولا مَتاعَ، فقالَ: إنَّ المُفْلِسَ مِن أُمَّتي يَأْتي يَومَ القِيامَةِ بصَلَاةٍ، وصِيامٍ، وزَكَاةٍ، ويَأْتي قدْ شَتَمَ هذا، وقَذَفَ هذا، وأَكَلَ مالَ هذا، وسَفَكَ دَمَ هذا، وضَرَبَ هذا، فيُعْطَى هذا مِن حَسَناتِهِ، وهذا مِن حَسَناتِهِ، فإنْ فَنِيَتْ حَسَناتُهُ قَبْلَ أنْ يُقْضَى ما عليه أُخِذَ مِن خَطاياهُمْ فَطُرِحَتْ عليه، ثُمَّ طُرِحَ في النَّارِ ".

وها هو النبي ﷺ مع كونه أشرف الخلق، وحبيب الحق سبحانه، وخير من تنفس الهواء، وخير من وطئ الحصى، ومع هذا فهو خائف أن يلقى الله وعليه مظلمة لأحد. فكان يقول ﷺ:" وإنِّي لأرجو أن ألقَى اللَّهَ وليسَ أحدٌ منكُم يطالبُني بمَظلمةٍ في دمٍ ولا مالٍ ". (رواه الإمام أحمد والترمذي) (صحيح الترمذي: 1314)

أخي الحبيب... إذا نظرت إلى من يأكل الحرام تجده في قلق، واكتئاب، واضطراب في النفس، ضيق في الصدر، وسواد في الوجه، ودعاء مردود، وعمل غير مقبول. وفي الآخرة فعذاب النار وغضب الجبار سبحانه. فقد أخرج الطبراني من حديث أبي بكر الصديق ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:" كلُّ جَسَدٍ نبتَ مِنْ سُحْتٍ فالنارُ أولَى بِهِ ". (صحيح الجامع: 4519)

دع الحـرص على الدنيا وفي العيش فلا تطمع
لا تجمع من الحرام فإنك لا تـدري لمن تجمــع
فـإن الــرزق مقســـوم وســوء الظـن لا ينفع
فقير كـــل مــن يطمــع غني كـل مــن يقنــع

(عقلاء المجانين لابن حبيب)

وأيُّ ندم وحسرة أعظم عندما يقف من جمع المال من الحرام بين يدي الله سبحانه يوم القيامة، فبأي عين سينظر إليه، وبأي لسان سيجيبه عندما يسأله عن هذا المال من أين اكتسبه وفيما أنفقه، ولا ينصرف من أمام الله تعالى حتى يجيب عن هذه الأسئلة التي جاء ذكرها في الحديث الذي أخرجه الترمذي من حديث عبد الله بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:" لَا تَزُولُ قَدَمَا ابْنِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ خَمْسٍ: عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ، وَعَنْ شَبَابِهِ فِيمَا أَبْلَاهُ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ، وَفِيمَا أَنْفَقَهُ، وَمَاذَا عَمِلَ فِيمَا عَلِمَ؟ ". فماذا هو قائل لله تعالى.

8- الندم يوم القيامة على مصاحبة أصحاب السوء:

سيندم يوم القيامة جلساء أهل السوء يوم انساقوا معهم يقودونهم إلى الرذيلة، ويصدونهم عن الفضيلة، إنها لحسرة عظيمة في يوم الحسرة، يُعبِّرون عنها بِعَضِّ الأيدي يوم لا ينفع عض الأيدي، كما قال ربي: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (27) يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (28) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا ﴾ (الفرقان:27– 29)

وفلان في هذه الآية هو صاحب السوء الذي يدعو جليسه إلى شريط الأغاني، والفيلم الخليع، والمجلة الساقطة... وإلى كل ما يلهيهِ عن طاعة الله وذكره.

وقال تعالى: ﴿الْأَخِلَّاء يَوْمَئِذٍ... ﴾ أي يوم القيامة... ﴿بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾ (الزخرف: 67)

فكل حبيب سيعادي حبيبه إلا المتحابين في الله، وكل صديق سيتبرأ من صديقه إلا من كانت صداقتهم على طاعة الله.

فإن كان الإنسان ممن ابتلي بصحبة مَن لا تقربه إلى الله صحبتهم، فليتبرأ منهم الآن قبل أن يتبرؤوا هم منه، لكن متى وأين؟ أما الزمان فمعلوم (إنه يوم القيامة)، وأما المكان ففي النار.

قال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُواْ مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ (166)وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّؤُواْ مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ (البقرة:166،167)

فهذه حسرة الأتْباع المقلدين لأصحاب السوء، ولعلماء الضلالة، فالنجاة والفوز في اتّباع النبي ﷺ، والسُّنَّة كسفينة نوح مَن ركِبها فقد نجا، ومن تخلف عنها فقد هلك. فليست الحُجة في قول فلان وفلان، إنما الحجة في قول النبي العدنان ﷺ... إنها حسرة الأتْباع المقلدين، والأصحاب المفسدين.

9- الندم يوم القيامة على موالاة الكافرين والمنافقين والظالمين:

قال تعالى: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾ (المائدة: 52).

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (سبأ: 33).

بعدما استقر أهل الجنة في الجنة، واستقر أهل النار في النار تبدأ المحاورات والمناقشات والمجادلات بين أهل النار...

ومن أعظم المشاهد المُخزية حسرة في يوم القيامة يوم يتبرأ الظالمون بعضهم من بعض، ويلعن بعضهم بعضًا، ويتنصَّل ويتبرأ التابع من المتبوع والعكس، فذاك قول الله تعالى:﴿ادْخُلُواْ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّن الْجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاَهُمْ رَبَّنَا هَؤُلاء أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لاَّ تَعْلَمُونَ (38) وَقَالَتْ أُولاَهُمْ لأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾(الأعراف:38)

فيا حسرة المتبوعين والأتباع والأعوان والسادة والضعفاء عندما يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ كما قال العزيز الجبار:

﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاء لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ ﴾(غافر:47)

فإذا بالسادة أذلة، قد عنت وجوههم للحيّ القيوم، لا يملكون لأنفسهم شيئًا ولا يستطيعون. يقولون: ﴿إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ (غافر:48)

وهنا تبدأ الحسرات والزفرات والآهات، عندها يقول التابعون للمتبوعين: ﴿لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾(سبأ:31)

أي حُلتم بيننا وبين الإيمان، زيَّنتم لنا الكُفران فتبعناكم، فأنتم المجرمون، وبالعذاب أنتم جديرون، وله مستحقون.... ويريد هؤلاء الضعفاء أن يحمّلوهم تبعة الإغواء الذي صار بهم إلى هذا البلاء، ويضيق الذين استكبروا بهم ذرعًا إذ هم في البلاء سواء....عندئذ يردون عليهم ويجيبونهم في ذلة مصحوبة بفظاظة وغلظة:﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءكُم...﴾ (سبأ:32)

نعم... زيَّنا لكم الحرام لكننا لم نقهركم عليه، فما لنا عليكم من سلطان.

نعم... عرضنا عليكم الأفلام الساقطة الخليعة، ولم نحملكم على مشاهدتها.

نعم... عرضنا عليكم المجلات الهابطة، والقصص الخليعة، ولم نحملكم على قراءتها.

نعم... عرضنا عليكم الملابس الخليعة الماجنة، ولم نحملكم على لبسها بل أنتم اشتريتموها.

فهل يعذر المسلم في اتّباعه للمفسدين المضلين؟! كلا. والله لا يعذر. لأن المفسدين المتسلطين لن يعذروه بين يدي الله يوم القيامة، فهم يقولون: ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾ (سبأ:32)

ثم يدرك الجميع أن هذا الحوار البائس لا ينفع هؤلاء ولا هؤلاء، إلا براءة بعضهم من بعض، علم كلٌ منهم أنه ظالم لنفسه، مستحق للعذاب، فيندم حين لا ينفع الندم، ويتمنَّى لو كان على الحق والإيمان والهدى والرشاد، لكن ولات حين مناص، فكان حالهم كما قال رب العالمين: ﴿وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾ (سبأ:33)

10- الندم يوم القيامة على ظلم الناس:

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (يونس: 54).

قال العلامة السعدي–رحمه الله–:" أي الذين ظلموا ندموا على ما قدموا ولات حين مناص، قال الشاعر:

نَدِمَ البغاةُ ولاتَ ساعة مندمِ والبغيُ مرتعٌ مبتغيه وخيم

وقال تعالى: ﴿وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ﴾ (الشورى: 44)

قال العلامة السعدي –رحمه الله–: يظهرون الندم العظيم والحزن على ما سلف منهم ﴿يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ﴾؛ أي: هل لنا طريق أو حيلة إلى رجوعنا إلى الدنيا لنعمل غير الذي كنا نعمل، وهذا طلب للأمر المحال الذي لا يمكن.

أحبتي في الله... إن التعامل بين الناس في الدنيا يكون بالدرهم والدينار، ولكن في الآخرة سيكون التعامل بالحسنات والسيئات، ورأس مال العبد في هذا اليوم حسناته.

فمن الناس من يأتي بحسنات يوم القيامة، لكن عليه مظالم للعباد، فيأخذون من حسناته بقدر ما لهم من حقوق، فإذا فنيت حسناته وبقي عليه من المظالم، فتؤخذ من سيئاتهم فتطرح عليه، ثم يطرح في النار–عياذا بالله– وهذا هو المفلس الذي أخبر عنه النبي ﷺ كما مر بنا في الحديث الذي أخرجه الإمام مسلم من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال:" أَتَدْرُونَ ما المُفْلِسُ؟ قالوا: المُفْلِسُ فِينا مَن لا دِرْهَمَ له ولا مَتاعَ، فقالَ: إنَّ المُفْلِسَ مِن أُمَّتي يَأْتي يَومَ القِيامَةِ بصَلاةٍ، وصِيامٍ، وزَكاةٍ، ويَأْتي قدْ شَتَمَ هذا، وقَذَفَ هذا، وأَكَلَ مالَ هذا، وسَفَكَ دَمَ هذا، وضَرَبَ هذا، فيُعْطَى هذا مِن حَسَناتِهِ، وهذا مِن حَسَناتِهِ، فإنْ فَنِيَتْ حَسَناتُهُ قَبْلَ أنْ يُقْضَى ما عليه أُخِذَ مِن خَطاياهُمْ فَطُرِحَتْ عليه، ثُمَّ طُرِحَ في النَّارِ ".

وفي يوم القيامة ستؤدَّى الحقوق إلى أهلها حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء، فلا ظلم ولا هضم، فقد أخرج الإمام مسلم عن أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ قال:" لتؤدنَّ الحقوق إلى أهلها يوم القيامة، حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء ".

وفي مسند الإمام أحمد عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:" يَقْتَصُّ الخلق بعضهم من بعض حتى الجماء من القرناء، وحتى الذَّرة من الذَّرة ".

خاب وخسر كل مَن ظَلَمَ، ولم يتحلَّل من المظالم في الدنيا:

قال تعالى: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ (طه:111)

فإذا كان هذا هو شأن الظلم؛ فحريٌ بالعباد أن يتَّقُوه ويتجنَّبوه؛ عملًا بوصية رب العالمين:" يا عبادي إني حرَّمت الظلم على نفسي وجعلته محرمًا بينكم، فلا تظالموا...". الحديث (أخرجه مسلم عن أبي ذرﷺ)

فإياك... إياك أخي الحبيب ومظالم العباد.

ألم أقل لكم أن الأمر خطير جد خطير، ولا يصلح فيه ولا ينجي منه إلا إصلاح الزاد، والبعد عن ظلم العباد، والتحلل من المظالم قبل يوم الحساب، وقد مر بنا قول رسول الله ﷺ:" مَن كَانَتْ له مَظْلِمَةٌ لأخِيهِ مِن عِرْضِهِ أَوْ شيءٍ، فَلْيَتَحَلَّلْهُ منه اليَومَ، قَبْلَ أَنْ لا يَكونَ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ، إنْ كانَ له عَمَلٌ صَالِحٌ أُخِذَ منه بقَدْرِ مَظْلِمَتِهِ، وإنْ لَمْ تَكُنْ له حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِن سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ فَحُمِلَ عليه ".

- وكان النبي ﷺ يخاف أن يلقى الله تعالى وعليه مظلمة لأحد. فكان يقول ﷺ:" وإنِّي لأرجو أن ألقَى اللَّهَ وليسَ أحدٌ منكُم يطالبُني بمَظلمةٍ في دمٍ ولا مالٍ ". (رواه الإمام أحمد والترمذي (صحيح الترمذي: 1314)

ويدل على هذا الموقف الجليل للرسول الكريم ﷺ:" فقد كان ﷺ يوم بدر يعدل صفوف المسلمين وفي يده قدح، وكان سواد بن غزية مستنصلًا من الصف، فطعن في بطنه بالقدح، وقال: استَوِ يا سواد، فقال سواد: يا رسول الله، أوجعتني فأقدني- يعني خذ لي بالحق من نفسك- فكشف الحبيب ﷺ عن بطنه، وقال استقد يا سواد، فاعتنق سواد وقبَّل بطن النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ:" ما حملك على هذا يا سواد؟ فقال سواد: يا رسول الله! قد حضر ما ترى، فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمسَّ جلدي جلدك، فدعا له رسول الله ﷺ بخير".

(رواه الطبراني، ورجاله ثقات ما عدا عبد الله بن جبير ففيه ضعف)

وهكذا كان أصحاب النبي ﷺ من بعده:

يقول عبادة بن محمد بن عبادة بن الصامت ﷺ:" لما حضرت عبادة بن الصامت ﷺ الوفاة، قال: أخرجوا فراشي إلى الصحن، يعني إلى الدار، ثم قال: اجمعوا إليَّ موالي، وخدمي وجيراني، ومَن كان يدخل عليّ، فجمعوا له، فقال: إن يومي هذا لا أراه إلا آخر يوم يأتي عليَّ من الدنيا، وأول ليلة من الآخرة، وإنه لا أدري لعله قد فرط مني إليكم بيدي أو بلساني شيء، وهو والذي نفس عبادة بيده، القصاص يوم القيامة، وأحرّج على أحد منكم في نفسه شيء من ذلك إلا اقتص مني قبل أن تخرج نفسي، فقالوا: بل كنت والدًا، وكنت مؤدبًا، قال: وما قال لخادم قط

سوءًا، فقال: أغفرتم لي ما كان من ذلك؟ قالوا: نعم، فقال: اللهم اشهد ". (وصايا العلماء عند الموت: ص 48-49)

11- الندم يوم القيامة على تضيع الأوقات في الدنيا:

يقول الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود ﷺ:" ما ندمت على شيء ندمي على يوم غربت شمسه، نقص فيه أجلي، ولم يزد فيه عملي ".

اعلم أخي الحبيب... إن المسلم ينبغي عليه أن يغتنم وقت فراغه في طاعة الله قبل أن يحول بينه وبين الأعمال الصالحة، فالوقت هو رأس مال العبد لا ينبغي عليه أن يفرط فيه ويضيعه فيما لا فائدة منه من لغو أو باطل، أو مما لا يعود عليه بالنفع، وعلى كل عبد أن يستغل كل لحظة في حياته ويعمل ليوم لا ينفع فيه مال ولا بنون، فاليوم عمل ولا حساب، وغدًا حساب ولا عمل، وكل ساعة تمر لا تقربكَ إلى الله، فهي عليكَ حسرة يوم القيامة، وقد مر بنا الحديث الذي أخرجه الطبراني في" المعجم الأوسط" وأبو نعيم في" حلية الأولياء" واللفظ له والبيهقي في" شعب الإيمان" بسند فيه مقال عن عائشة-رضي الله عنها-عن النبي ﷺ قال:" ما من ساعة تمر بابن آدم لا يُذكر الله فيها إلا تحسَّر عليها يوم القيامة ".

وإن كان الحديث ضعيفًا إلا أن المعنى صحيح ويشهد له أحاديث صحيحة منها ما أخرجه الطبراني في الكبير والبيهقي في الشعب من حديث مُعاذ بن جبل ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:" لَيْسَ يَتحَسَّر أَهْلُ الجَنَّةِ إلا عَلَى سَاعَةٍ مَرَّتْ بِهِمْ وَلَمْ يَذْكُرُوا اللهَ تَعَالى فِيهَا". (صحيح الجامع: 5446) (الصحيحة:2197)

وأخرجه أحمد وأبو داود من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:" ما من قومٍ يقومونَ من مجلسٍ لا يذكرونَ اللهَ فيهِ إلا قامُوا عن مثلِ جيفةِ حمارٍ، وكان لهم حسرةً ". (صحيح أبي داود: 4855)

فعلى المرء ألا يضيع الأوقات، ويغتنم الصحة والشباب، والغنى والفراغ قبل يوم الحسرات يوم يُطلب الرجوع عند الممات، فيقال له: فات.

وقد جاء في الحديث الذي أخرجه الحاكم من حديث ابن عباس–رضي الله عنهما– أن النبي ﷺ قال:" اغتنم خمسًا قبل خمسٍ: شبابك قبل هَرَمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك ". (صحيح الجامع: 1077)

جاء في" كتاب قصر الأمل" لابن أبي الدنيا عن عبد الواحد بن صفوان قال:" كنا مع الحسن في جنازة، فقال: رحم الله امرأً عمل لمثل هذا اليوم، إنكم اليوم تقدرون على ما لا يقدر عليه إخوانكم هؤلاء من أهل القبور، فاغتنموا الصحة والفراغ، قبل يوم الفزعة والحساب ".

يقول سعيد بن جبير–رحمه الله–:" كل يوم يعيشه المؤمن غنيمة ".

فالوقت هو رأس مال العبد وبه يشتري جنة نعيمها مقيم.

اعلم أخي الحبيب... أن الوقت أغلى ما في الوجود: فقد أخرج البخاري عن ابن عباس–رضي الله عنهما– قال: قال رسول الله ﷺ:" نعمتان مغبونٌ فيهما كثيرٌ من الناس: الصحة والفراغ ".

يقول ابن الجوزي–رحمه الله–:" قد يكون الإنسان صحيحًا ولا يكون متفرغًا لشغله بالمعاش، وقد يكون مستغنيًا ولا يكون صحيحًا، فإذا اجتمعت (أي الصحة والفراغ) فغلب عليه الكسل عن الطاعة فهو المغبون، وتمام ذلك أن الدنيا مزرعة الآخرة، وفيها التجارة التي يظهر ربحها عن الآخرة، فمَن استعمل فراغه وصحته في طاعة الله فهو المغبوط، ومن استعملها في معصية الله فهو المغبون؛ لأن الفراغ يعقبه الشغل، والصحة يعقبها السقم ". (فتح الباري:234/11)

ويقول ابن قدامة–رحمه الله–:" فاغتنم رحمك الله حياتك النفيسة، واحتفظ بأوقاتك العزيزة، واعلم أن مدة حياتك محدودة، وأنفاسك معدودة، فكل نفسٍ ينقص به جزءٌ منك، والعمر كله قصير، والباقي منه هو اليسير، وكل نَفَسٍ جوهرةٌ نفيسة لا عدلٌ لها ولا خلف منها، فإن بهذه الحياة اليسيرة خلود الأبد في النعيم أو العذاب الأليم، وإذا عادلت هذه الحياة بخلود الأبد علمت أن كل نفسٍ يعدل أكثر من ألف عام.

اغتنم في الفراغ فضل ركوعٍ ... فعسى أن يكون موتُك بَغْتة

كم صحيحٍ رأيت من غير سُقْمٍ ... ذهبتْ نفسُه السليمةُ فَلْتة

وكان السلف الصالح أعلم بقيمة الوقت، فكانوا حريصين على ألا تمر عليهم لحظة إلا في طاعة الله، وكانوا يعدون ذلك مغنمًا، وعلموا أن ضياع الوقت بلا فائدة مغرمٌ.

كما قال قائلهم:

إذا مرَّ بي يومٌ ولم أقتبس هدى ولم أستفد علمًا فما ذاك من عمري

انظر إلى أبي بكر الصديق ﷺ وكيف كان حريصًا على أن يُعمِّر وقته بطاعة الله تعالى.

ففي الحديث الذي أخرجه الامام مسلم من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:" مَن أَصْبَحَ مِنْكُمُ اليومَ صائِمًا؟ قالَ أبو بَكْرٍ ﷺ: أنا، قالَ: فمَن تَبِعَ مِنْكُمُ اليومَ جِنازَةً؟ قالَ أبو بَكْرٍ ﷺ: أنا، قالَ: فمَن أطْعَمَ مِنْكُمُ اليومَ مِسْكِينًا؟ قالَ أبو بَكْرٍ ﷺ: أنا، قالَ: فمَن عادَ مِنْكُمُ اليومَ مَرِيضًا؟ قالَ أبو بَكْرٍ ﷺ: أنا، فقالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: ما اجْتَمَعْنَ في امْرِئٍ، إلَّا دَخَلَ الجَنَّةَ ."

فالصديق ﷺ فعل هذه الأعمال في أول النهار، فكيف بباقي يومه؟ ولولا أن النبي ﷺ سأل ما علمنا ما قام به أبو بكر ﷺ، فيومه كان عامرًا بطاعة الله، وكان في قمة الإخلاص.

– فها هو أبو مسلم الخولاني–رحمه الله– يقول:" لو رأيت الجنة عيانًا ما كان عندي مستزاد، ولو رأيت النار عيانًا ما كان عندي مستزاد". (صفة الصفوة)

– وكان داود الطائي–رحمه الله–يستف الفتيت ويقول:" بين سف الفتيت وأكل الخبز قراءة خمسين آية".

– وقال أبو بكر بن عياش–رحمه الله–:" ختمت القرآن في هذه الزاوية ثمانية عشر ألف ختمة ."

– وكان عمير بن هانئ–رحمه الله– يسبح كل يوم مائة ألف تسبيحة.

والبعض منا ربما مر عليه اليوم ولم يسبح تسبيحة واحدة، ولا حول ولا قوة إلا بالله، والنبي ﷺ يقول:" مَن قال سبحان الله العظيم وبحمده؛ غُرست له نخلة في الجنة" (رواه الترمذي) فكم ضيَّعنا من نخيل؟؟

وانظر إلى قصة عامر بن عبد الله التابعي الجليل، ففيها العجب، يقول عنه أبناء البصرة: سافرت في قافلة فيها عامر بن عبد الله التميمي فلما أقبل علينا الليل نزلنا بغيطة فجمع عامر متاعه وربط فرسه بشجرةٍ وطول له زمامها وجمع له من حشائش الأرض ما يشبعه وطرحه أمامه ثم دخل الغيطة وأوغل فيها فقلت في نفسي والله لأتبعنه ولأنظرن ماذا يصنع في أعماق هذه الغيطة، فمضى حتى انتهى إلى رابيةٍ ملتفة الشجر مستورة عن الأعين، فاستقبل القبلة وانتصب

قائمًا يصلي، فما رأيت أحسن من صلاته ولا أكمل ولا أخشع فلما صلى ما شاء الله أن يصلي طفق يدعو الله ويناجيه فكان مما قاله: إلهي لقد خلقتني بأمرك وأقمتني في هذه الدنيا بمشيئتك ثم قلت لي استمسك، كيف أستمسك إن لم تمسكني بلطفك يا قوي يا متين، إلهي إنك تعلم أنه لو كانت لي هذه الدنيا بما فيها ثم طلبت مني مرضاةً لك لوهبتها لطالبها فهب لي نفسي يا أرحم الراحمين، إلهي إني أحببتك حبًا سهل علي كل مصيبةٍ ورضاني بكل قضاء فلا أبالي مع حبي لك ما أصبحت عليه وما أمسيت.

قال الرجل البصري: ثم إني غلبني النعاس فأسلمت جفني إلى الكرى ثم مازلت أنام وأستيقظ وعامر بن عبد الله التميمي منتصب في موقفه ماض في صلاته ومناجاته حتى تبسم الصبح، فلما بدا الفجر أدى المكتوبة ثم أقبل يدعو فقال: اللهم قد أصبح الصبح وطفق الناس يغدون ويروحون يبتغون من فضلك وإن لكلٍّ منهم حاجة وإن حاجة عامر عندك أن تغفر له، اللهم فاقض حاجتي وحاجاتهم يا أكرم الأكرمين اللهم إني سألتك ثلاثًا فأعطيتني اثنتين ومنعتني واحدة اللهم فأعطنيها حتى أعبدك كما أحب وأريد، ثم نهض من مجلسه فوقع بصره علي، فعلم بمكاني منه في تلك الليلة فجذع لذلك أشد الجذع، وقال لي في أسىً: أراك كنت ترقبني الليلة يا أخا البصرة، قلت: نعم، قال: استر ما رأيت مني ستر الله عليك. فقلت: والله لتحدثني بهذه الثلاث الذي سألتها ربك أو لأخبرن الناس بما رأيت، فقال: ويحك لا تفعل، قلت: هو ما أقول فلما رأى إصراري قال: أحدثك على أن تعطيني عهد الله وميثاقه أن لا تخبر بذلك أحدًا، قال: قلت لك علي عهد الله وميثاقه أن لا أفشي لك سرًا ما دمت حيًا. قال: لم يكن شيئًا أخوف علي في ديني من النساء فقلت: ربي أسألك أن تنزع من قلبي حبهم، فاستجاب لي حتى صرت لا أبالي امرأة رأيت أم جدارًا، فقلت: هذه واحدة فما الثانية؟ قال: الثانية أني سألت ربي أن لا أخاف أحدًا غيره فاستجاب لي حتى إني والله ما أرهب شيئًا في الأرض ولا في السماء سواه. قال: فما الثالثة؟ قال: سألت ربي أن يذهب عني النوم حتى أعبده ليلًا ونهارًا فمنعني هذه الثالثة.

فلما سمعت منه ذلك قلت له رفقًا بنفسك فإنك تقضي ليلك قائمًا وتقطع نهارك صائمًا وإن الجنة تدرك بأقل مما تصنع، وإن النار تتقى بأقل مما تعاني، فقال: إني لأخشى أن أندم حيث لا ينفع الندم، والله لأجتهدن في العبادة ما وجدت للاجتهاد سبيلًا فإن نجوت فبرحمة الله، وإن دخلت النار فمن نفسي.

هذا ما يقوله عامر بن عبد الله الذي يقضي نهاره صائمًا، وليله قائمًا، فماذا عنا نحن؟

أما عن حال الكثير منا اليوم؟ فقد ماتت فيهم الهمم، وخارت العزائم، وأصبح هناك دعة وراحة وتكاسل، تمر الساعات والأيام ولا يُحْسَبُ لها حساب، ينادي أحدهم على صاحبه قائلًا:" تعال لنضيع الوقت".

فتضيع الأوقات بمشاهدة المباريات، أو الجلوس في الطرقات طوال النهار، أو المحادثة على الشات، وتضيع الساعات على النت أو الفضائيات أو المكالمات، ومن النساء من تقف الساعات الطوال أمام المرآة، وغير ذلك من صور ضياع الوقت الممقوتة، وهذا كله دليل على مقت الله للعبد، كما قيل:" من علامة المقت إضاعة الوقت". فالمؤمن ليس عنده وقت فراغ، قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾(الشرح:8) فَإِذَا فَرَغْتَ من شغلك ومن الناس ومن شواغل الحياة، فتوجه إلى الله تعالى بالطاعة والعبادة.

- فمن جهل الناس بقيمة الوقت يفرحون بمغيب شمس كل يومٍ، وهم لا يدركون أن هذا نهاية يوم من أعمارهم لن يعود أبدًا إليهم، صحائف طويت، وأعمال أحصيت، وأنفاس انقضت.

فيا أيها الغافل عن شرف الزمان، أين أنت من قول الرحمن: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاء وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (الحديد:21)

أين أنت من قوله تعالى:﴿وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (133) الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاء وَالضَّرَّاء وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (آل عمران: 133،134)

فالصالحون تنافسوا في الخيرات، ففازوا بالحسنات، طمعًا في الجنات، وأنت أيها المسكين ما زلت أسيرًا للشهوات، وعبدًا للَّذات، فيا عُبَّاد الشهوات، يا عُبَّاد الملاهي والمنتديات، يا عُبَّاد الشاشات والفضائيات: ما لكم لا ترجون لله وقارًا، فيا مُضيع الزمان فيما ينقص الإيمان، يا معرضًا عن الأرباح، متعرضًا للخسران، يا مَن أسرف على نفسه وأتبعها الهوى، وجانب الجادة في أيامه وغوى، هاك أبواب التوبة مفتوحة، فهيا إلى التوبة، هيا إلى الأوبة، ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ (الحديد:16) هيا أعلنها، وقل: بلى. يا رب قد

آن، بلى. يا رب قد آن.

من مشاهد الحسرة والندامة:

أولًا: الحسرة والندامة عند خروج الروح:

قال تعالى: ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ (26)وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ(27) وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ(28)وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ (29) إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ[1]﴾(القيامة:26-30) يا لها من ساعة لا تشبهها ساعة، يندم فيها أهل التقى على ما فرطوا في الطاعة، فكيف أهل الإضاعة، عندما يجتمع عليهم في هذه اللحظة شدة الموت مع حسرة الفوت.

فيا حسرة وندم المفرط عندما يأتيه ملك الموت ويجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الخبيثة، اخرجي إلى سخط من الله وغضب". إنها حسرة تعمل في النفوس كما تعمل الديدان في الأجساد.

قال العلامة السعدي-رحمه الله-: وفي قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ (المؤمنون: 99) يخبر تعالى عن حال من حضره الموت من المفرطين الظالمين، أنه يندم في تلك الحال، إذا رأى مآله وشاهد قبيح أعماله فيطلب الرجعة إلى الدنيا لا للتمتُّع بلذَّاتها واقتطاف شهواتها، وإنما ذلك ليقول: ﴿لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾(المؤمنون: 100) من العمل، وفرطتُ في جنب الله ﴿كَلَّا﴾؛ أي: لا رجعة له، ولا إمهال قد قضى الله أنهم لا يرجعون.

1- إذا وصلت الروح إلى أعالي الصدر، وقال بعض الحاضرين لبعض: هل مِن راق يَرْقيه ويَشْفيه مما هو فيه؟ وأيقن المحتضر أنَّ الذي نزل به هو فراق الدنيا؛ لمعاينته ملائكة الموت، واتصلت شدة آخر الدنيا بشدة أول الآخرة، إلى الله تعالى مساق العباد يوم القيامة: إما إلى الجنة وإما إلى النار. (التفسير الميسر)

وقال ابن الجوزي–رحمه الله–:" من أطلق نفسه في شهواتها ولم ينظر في حلال وحرام، نزل به من الندم وقت الموت أضعاف ما تلذذ به في الحرام، ولقي من مرير الحسرات ما لا يقاومه ولا ذرة من كل لذة، ولو كان هذا فحسب لكفى حزنًا، كيف والجزاء الدائم بين يديه؟!

ثانيًا: مشاهد الحسرة والندامة يوم القيامة:

أخرج البخاري من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:" يُؤْتَى بالمَوْتِ كَهَيْئَةِ كَبْشٍ أمْلَحَ[1]، فيُنادِي مُنادٍ: يا أهْلَ الجَنَّةِ، فَيَشْرَئِبُّونَ[2] ويَنْظُرُونَ، فيَقولُ: هلْ تَعْرِفُونَ هذا؟ فيَقولونَ: نَعَمْ، هذا المَوْتُ، وكُلُّهُمْ قدْ رَآهُ، ثُمَّ يُنادِي: يا أهْلَ النَّارِ، فَيَشْرَئِبُّونَ ويَنْظُرُونَ، فيَقولُ: هلْ تَعْرِفُونَ هذا؟ فيَقولونَ: نَعَمْ، هذا المَوْتُ، وكُلُّهُمْ قدْ رَآهُ، فيُذْبَحُ، ثُمَّ يقولُ: يا أهْلَ الجَنَّةِ، خُلُودٌ فلا مَوْتَ، ويا أهْلَ النَّارِ، خُلُودٌ فلا مَوْتَ. ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ[3] إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ (مريم:39)

آهٍ ساعتها من ندم لا ينفع، ومن دموعٍ لا تشفع، ومن صراخ لا يُسمع.

يقول عبد الله بن مسعود ﷺ:" إن شرَّ الندامة ندامة يوم القيامة ".

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَاكُمْ عَذَاباً قَرِيباً يَوْمَ يَنظُرُ المرء مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الكافر ياليتني كُنتُ تُرَاباً﴾.

والإنذار: الإخبار بحصول شيء تسوء عاقبته، في وقت يستطيع المنذر فيه أن يجنب نفسه الوقوع في ذلك الشيء. أي: إنَّا أخبرناكم أيها الناس بأن هناك عذابًا قريبًا، سيحل بمن يستحقه عما قريب. وذلك العذاب سيكون أشد هولًا، وأبقى أثرًا، يوم القيامة، ﴿يَوْمَ يَنظُرُ المرء مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ أي: يوم يرى كل إنسان عمله حاضرًا أمامه، ومسجلًا عليه ﴿وَيَقُولُ الكافر ياليتني كُنتُ تُرَاباً﴾ أي: ويقول الإنسان الكافر في هذا اليوم على سبيل الحسرة والندامة، ياليتني كُنتُ في الدنيا تُرَابًا، ولم أخلق بشرًا، ولم أكلف بشيء من التكاليف، ولم أبعث ولم أحاسب.

1– أَمْلَحَ: أي فيه بَياضٌ وسَوادٌ، لكنَّ سَوَادَه أقلُّ، والكَبْشُ: فَحْلُ الضَّأْنِ.

2– فيَشْرَئِبُّون: أي يَمُدُّون أعناقَهم ورِقابَهم ويَرفَعون رُؤوسَهم ويَنظُرون.

3– يَوْمَ الْحَسْرَةِ: يعني يومَ القيامةِ يتحَسَّرُ المسيءُ ويندَمُ إذ لم يُحسِنْ، والمقصِّرُ إذ لم يزدَدْ من الخيرِ.

فالمقصود بالآية قطع أعذار المعتذرين بأبلغ وجه، من قبل أن يأتي يوم لا ينفع فيه مالٌ ولا بنون إلا من أتى اللهَ بقلب سليم. (التفسير الوسيط)

ثالثًا: الحسرة والندامة عند تطاير الصحف:

وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ(25) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ (26) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ﴾ (الحاقة: 25–27).

يقول ابن كثير–رحمه الله– في تفسيره:" وهذا إخبار عن حال الأشقياء إذا أعطي أحدهم كتابه في العرصات بشماله، فحينئذ يندم غاية الندم ﴿فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ(25) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ(26) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ﴾ قال الضحاك: يعني موتة لا حياة بعدها. وقال قتادة: تمنى الموت، ولم يكن شيء في الدنيا أكره إليه منه ". اهـ

رابعًا: الحسرة والندامة عند مجيء جهنم:

فقد أخرج الإمام مسلم من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:" يُؤتى بجهنم لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها ".

فيا له من مشهد مهيب تتفطر منه القلوب... فإذا جيء بجهنم لا يبقى مَلَك مُقرب، ولا نبي مرسل إلا جثى على ركبتيه، وقال: اللهم سلم سلم: وهنا يندم كل مفرط ومقصر في حق الله تعالى، كما قال رب العالمين في كتابه الكريم:﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا(21)وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا(22)وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى(23)يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ (الفجر:21– 24)

تأمل معي الندم والحسرة لكل مَن فرَّط في حق الله ﷻ، إذا رأى جهنم فإنه يصرخ ويقول: ﴿يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ (الفجر:24) كلمة يقولها كل مَن فرَّط في الصلاة وضيع، وكل من عق والديه، وكل من ظلم العباد وحارب الله بارتكاب الذنوب والموبقات، كلمة تقولها كل من تركت حجابها.

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الأنعام: 27).

قال الإمام ابن الجوزي–رحمه الله–: إذا انشقت السماوات وبرزت النيران وأزلفت الجنان وندم العاصي على ما عمل من العصيان وعلى ما فرط فيه من طاعة الرحمن، فانتبهوا لهذه الأهوال يا معشر الإخوان،... فإن الهول والله عظيم والخطب كبيرٌ جسيمٌ.

خامسًا: الحسرة والندامة يوم القيامة لكل من اتبع الشيطان:

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ(36)وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ(37) حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾ (الزخرف: 36 – 38).

عندما يدخل أهلُ النارِ النارَ، وقُضي الأمر، هنا يقوم إبليس ويخطب في أهل النار خطبته الشيطانية القاسمة يصبها على أوليائه، فقال الله تعالى مصورًا هذا المشهد: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ إنها طعنة أليمة نافذة، لا يملكون أن يردُّوها عليه، وقد قضي الأمر وفات الأوان، ثم قال الشيطان: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي...﴾ ثم يُؤنِّبهم على أن أطاعوه: ﴿فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُواْ أَنفُسَكُم مَّا أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾ نفض يده منهم، وهو الذي وعدهم ومنَّاهم ووسوس لهم، وأما الساعة فلا هُم يستطيعون أن يدفعوا عنه العذاب، ولا هو يستطيع أن يدفع عنهم العذاب: ﴿ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (إبراهيم:22)

فيا ندم المقصرين... ويا حسرة العاصين، لذات تمر وتبعات تبقى، فدع أخي الحبيب الذي يفنى لما هو باق... واحذر من ذلل قدمك، ومن حلول ندمك، واغتنم شبابك قبل هرمك.

فعلى العصاة المفرطين أن يتبرؤوا من الشيطان في الدنيا قبل أن يتبرأ هو مِنهم يوم القيامة.

سادسًا: ندم وحسرات أهل النار:

قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ (فاطر:37).

تأمَّل معي أخي الحبيب في حال أهل النار، وقد قاسوا من دواهي القيامة ما قاسوا، قد شُدَّت أقدامهم إلى النواصي، واسودَّت وجوههم من ظلمة المعاصي، فعندما يقذف بهم في النار، ينادون من أكنافها، ويصيحون في نواحيها وأطرافها: يا مالِك... قد حق علينا الوعيد، يا مالِك... قد أثقلنا الحديد...يا مالِك... قد نضجت منا الجلود، يا مالِك... أخرجنا منها فإنا لا نعود.

فتقول الزبانية: لا خروج لكم من دار الهوان، فاخسئوا فيها ولا تكلمون، ولو أُخرجتم منها لكنتم إلى ما نُهيتم عنه تعودون، فعند ذلك يقنطون، وعلى ما فرطوا في جنب الله يتأسفون، ولا يُنجّيهم الندم، ولا يغنيهم الأسف، بل يُكبون على وجوههم مغلولين، طعامهم نار، وشرابهم نار، ولباسهم نار، ومهادهم نار، قال تعالى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ (الأعراف:41)

ويُلقى على أهل النار الجوع حتى يعدل ما هم فيه من العذاب، فيستغيثون بالطعام، فيُغاثون بطعام من ضريع، لا يُسمن ولا يُغني من جوع، فيطلبون الشراب فيُرْفَع إليهم الحميم بكلاليب الحديد، فإذا دنت من وجوههم شوت وجوههم، فإذا دخل الشراب بطونهم قطَّع ما في بطونهم.

– فيقولون: ادعوا خزنة جهنم، فيدعون خزنة جهنم، ويقولون لهم:﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ (49) قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاء الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾ (غافر:49،50)

– فيقولون ادعوا مالكًا، فيقولون: ﴿يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ فيجيبهم: ﴿ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ ﴾(الزخرف:77)

قال الأعمش–رحمه الله–: أنْبِئْتُ أن بين دعائهم وبين إجابة مالك إياهم ألف عام.

– فيقولون: ادعوا ربكم فلا أحد خير من ربكم: فيقولون:﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا[1] وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ (106) رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴾ فيجيبهم: ﴿ اخْسَؤُوا[2] فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ (المؤمنون:106– 108)

منتهى الحسرة والندم... فإلى مَنْ بعد ذلك سيذهبون إذ قد هانوا على رب العالمين؟! فعند ذلك يئسوا من كل خير، وعند ذلك أخذوا في الزفير والويل.

فعلينا بالتوبة والندم قبل حلول الأجل، قبل أن يندم المفرط يوم القيامة فلا ينفع الندم:

قال الحافظ ابن حجر–رحمه الله–:" يستحب لمن وقع في معصية وندم أن يبادر إلى التوبة منها " فالسعيد مَنْ وفَّقه الله فتاب من ذنوبه في الدنيا وندم عليها، والشقي من لم يتب من ذنوبه ولم يندم عليها، فعاقبته في الآخرة الحسرة والندامة عندما ينزل به العذاب.

فالمُفرِّط المُقصِّر عليه أن يقف مع نفسه وقفة صدق، ويقول لها:

يا نفس .... كيف بك إذا جاءتك السكرات وبلغت الروح منك التراق؟

كيف وقد صار إلى الله المساق، يا لهف نفسي أم كيف بك إذا وقفت مع العباد يوم التلاق؛﴿يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ (غافر:16)

ليتني أعرف بأي رِجْل سأخطو إليه إذا نُوديت على رؤوس الأشهاد؟

وبأي بدن سأقف بين يديه يوم التناد؟ وبأي لسان سأجيب عليه؟

ما حيلتي وقد حل القضاء وكيف احتيالي إذا شهدت الأعضاء؟

من سيلهمني حجتي؟ من سيدافع عني؟

قد تبرأ الأصحاب .... فلا أصحاب. وتقطعت الأسباب ... فلا أنساب.

الدنيا الغرارة قد ولت عني، والشيطان الرجيم تبرأ مني.

كيف لم أقم لله حسابًا؟! ولم أخش له عقابًا؟!

من لي إذا حجبت في ذلك اليوم عن ربي؟ فلم يزكني... ولم ينظر إليّ... ولم يكلمني.

من لي إذا نادى المنادي بمن عصى إلى أين التجائي؟ إلى أين أهرب؟

فيا طول حزني ثم يا طول حسرتي لئن كنت في قعر جهنم أُعذب.

1– شِقوتنا: أي شقاوتنا، أو لذاتُنا وشهواتنا.

2. اخسئوا فيها: انزجِروا فيها وابعدوا.

يا نفس... كيف أنتِ مني غدًا وقد رأيتِ ركاب أهل الجنة يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم، كيف قد حيل بينك وبينهم؟ هل ينفع الندم؟ هل تغني الحسرات؟ هل ينفع طلب الرجوع بعد الممات؟

يا نفس... انظري واعتبري بمن سكن القبور بعد القصور، واعلمي أن الفرصة واحدة لا تتكرر، فإذا جاءت السكرة فلا رجعة ولا عودة، فأنت في دار المهلة، فاعملي قبل النُقلة، قبل أن تقولي: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ(99) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ﴾ (المؤمنون:99،100) فيقال لكِ: فات.

فيا مَنْ تتمادَى في الذنوب والعصيان بادر إلى التوبة منها، والندم عليها، قبل أن تندم عليها يوم القيامة فلا ينفع الندم:

قال ابن الجوزي–رحمه الله–:" يا مَنْ تمادَى في معصية ربِّ الأرباب، ونسي الجنَّة وحسن المآب... فانظر لنفسك... قبل حلول الندم، وزوال النِّعَم، ونزول النقم، حيث لا ينفع الندم، فاستعدَّ للسؤال، وتهيَّأ للجِدال.

وقال الحافظ ابن رجب–رحمه الله–:" الغنيمة، الغنيمة بانتهاز الفرصة...المبادرة، المبادرة بالعمل، والعجل العجل قبل هجوم الأجل، قبل أن يندم المفرط على ما فعل، قبل أن يسأل الرجعة ليعمل صالحًا فلا يُجاب إلى ما سأل، قبل أن يصير المرء مرتهَنًا في حفرته بما قدم من عمل ."

أحبتي في الله... في يوم القيامة يبحث كل إنسان عن أي وسيلة مهما كانت ضعيفة واهية، لعلها تصلح لنجاته من غضب الله، ولذلك تكثر المناقشات والمحاورات بين الآباء والأبناء، والأزواج والزوجات، والكبار المتسلطين والصغار التابعين، بين الأغنياء الجبارين والفقراء المنافقين، كلٌ يحاول إلقاء التبعة على غيره، لكن ساعتها لا تنفع المحاورات ولا الخصومات، ولا التنصل من التبعات، ولا يكون إلا الحسرات.

– أما آن لنا أن نحذر من كل ناعق ملبس خائن، يمكر بالليل والنهار، قبل أن تقول نفس: يا حسرتاه.

– أما آن للضعفة الأتباع أن يتبرؤوا من متبوعيهم الظالمين المفسدين، فلا يكونوا أداة لهم في ظلم في دماء أو أعراض، طمعًا في جاه أو حطام، فإنهم سينقلبون عليهم يوم القيامة، ويلعن بعضهم بعضًا حيث لا ينفع لعن ولا ندم. ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا(67) رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾(الأحزاب:67،68)

– أما آن للمرأة المسكينة في زماننا اليوم أن تنتبه لهذه المواقف، فتتبرأ في دنياها اليوم من كل ناعق لها باسم الحرية والتمدن، ومتابعة الأزياء والموضات، حتى لا تتحسر يوم الحسرة الكبرى، عندما يتبرأ منها شياطين الإنس والجن الذين أضلوها، ثم لا يغنوا عنها من عذاب الله من شيء إلا الخصام والتلاعن.

– أمَا آن الأوان لأتباع الطوائف الضالة المبتدعة أن يفيقوا ويدركوا خطر هذه المتابعة التي ستنقلب حسرة كبرى، وعداوة، ولعنة بينهم وبين متبوعيهم يوم القيامة!!! كما قال تعالى:﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾ (العنكبوت:25)

– أما آن لأهل المعاصي أن يعلنوها توبة عاجلة نصوحًا، قبل الممات وقبل يوم الحسرات، يوم تشهد الأعضاء والجوارح، وتبدو السوءات والفضائح!!!

يا أيها العاصي... كيف تعصيه وأنت فوق أرضه التي خلق، وتحت سمائه التي فتق؟! تتنفس هواءه، وتأكل وتشرب من نعمِهِ وآلائه! وتعصيه بأعضائك التي أعطاها لك وحرمها غيرك، أفٍّ لك! هل تستطيع أن تتحمل خيانة مَن ربَّيته وأنعمت عليه؟! وأنت لم تخلقه!

يا لها من نعمة عليك عظيمة! أنْ أمهلك اللهُ حتى هذه اللحظة لتتوب، ولم يأمر الله أن تخطفك ملائكة الموت وأنت على عصيانك، فتُلقى في النار.

فاحمد الله ﷻ أن منَّ عليك بنعمة الحياة، ولم يقبضك على العصيان.

فهيا أيها الحبيب... أُخْلُ بنفسك، ناجِ ربك، وأسل دمعك، وطهِّر قلبك حتى يُغفر لك ما تقدم من ذنبك، تب إلى الله توبة نصوحًا. لكن إن أبيت إلا العصيان، وملازمة المعاصي والطغيان، فتوضأ وكبِّر على قلبك أربع تكبيرات فإنه لا قلب لك. اللهم أحي قلوبنا، وثبتنا على الإيمان يا رحيم يا رحمن

فهيا معًا لنسبح في بحر التوبة لنطفئ لفح وحرارة الذنوب ليرضى عنا علام الغيوب

واعلم أخي الحبيب... أن الله ﷻ لا يُقنِّط أحدًا من رحمته، فبابه دائمًا مفتوح إلى أن تطلع الشمس من مغربها، وإلى أن تغرغر الروح.

وها هم أهل الشرك والقتل والزنا يفتح الله أمامهم باب التوبة فيقول:﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (68) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا﴾ (الفرقان:68،69)

ثم بعد ذلك يفتح الله لهم بابَ التوبةِ، ويقول:﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (70) وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴾ (الفرقان:70،71)

وقال تعالى:﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾(الزمر:53)

أيها العاصي... لئن أتعبتك المعاصي، وأثقلتك الذنوب، فاعلم أن لك ربًا يريد منك أن تتوب:

﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ (النساء:27)

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (النساء:110)

أخرج الترمذي عن أنس بن مالك ﷺ يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول: قالَ اللَّهُ تبارَكَ وتعالى: يا ابنَ آدمَ إنَّكَ ما دعوتَني ورجوتَني غفَرتُ لَكَ على ما كانَ فيكَ ولا أبالي، يا ابنَ آدمَ لو بلغت ذنوبُكَ عَنانَ السَّماءِ[1]ثمَّ استغفرتَني غفرتُ لَكَ، ولا أبالي، يا ابنَ آدمَ إنَّكَ لو أتيتَني بقرابِ الأرضِ[2] خطايا ثمَّ لقيتَني لا تشرِكُ بي شيئًا لأتيتُكَ بقرابِها مغفرةً ". (صحيح الترمذي: 3540)

فهيا بنا... نقلع عن المعاصي ونبدأ صفحة جديدة مع الله ﷻ طامعين في رحمته راجين موعوده ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (الفرقان:70)

فهيا... هيا أخي العاصي... أخي الحبيب... اكتب قصة الرجوع بقلم النزوع بمداد الدموع، واسع بها على قدم الخضوع إلى باب الخشوع، وسل رفعها فرُبَّ سؤال مسموع.

1- العنان: ما عَن منها – أي ظهر – والمقصود هو السحاب.

2- قراب الأرض: أي ما يقارب ملء الأرض.

هيا بنا... نتواعد على طاعة الله؛ ليكون موعدنا في جنة الرحمن، التي فيها ما لا عين رأت ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وحتى ننعم برؤية وجه الله الكريم ونكون في صحبة النبي الأمين ﷺ.

جعلنا الله وإياكم من الرابحين السعداء، يوم يخسر المبطلون الأشقياء، ويتحسر المتحسرون التعساء، إن ربي ولي النعماء، وكاشف الضر والبلاء.

الخاتمة

وبعد...

فهذا آخر ما تيسَّر جمعه في هذه الرسالة.

وأسأل الله– تعالى– أن يكتب لها القبول، وأن يتقبَّلها منّي بقبول حسن، كما أسأله سبحانه وتعالى أن ينفع بها مؤلفها وقارئها، ومَن أعان على إخراجها ونشرها.....إنه ولي ذلك والقادر عليه.

هذا وما كان فيها من صواب فمن الله وحده، وما كان من سهو أو خطأ أو نسيان فمنِّي ومن الشيطان، والله ورسوله منه براء، وهذا شأن أي عمل بشري فإنه يعتريه الخطأ والصواب، فإن كان صوابًا فادعُ لي بالقبول والتوفيق، وإن كان ثَمَّ خطأ فاستغفر لي:

وإن وجدت العيب فسد الخللا جلّ من لا عيب فيه وعلا

فاللهم اجعل عملي كله صالحًا ولوجهك خالصًا، ولا تجعل لأحد فيه نصيبًا

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلّى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

هذا والله – تعالى– أعلى وأعلم.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك

الفهرس

تمهيد 2
نبض الرسالة 3
1- الندم يوم القيامة على عدم طاعة الله تعالى: 5
2- الندم يوم القيامة على عدم الإخلاص في الطاعة: 6
3- الندم يوم القيامة على عدم اتّباع النبي ﷺ: 8
4- الندم يوم القيامة على أوقات مرت في الدنيا بغير ذكر الله تعالى: 9
5- الندم يوم القيامة على ضياع الحسنات: 11
6- الندم يوم القيامة على حبس الزكاة، وعدم الإنفاق في الدنيا: 12
7- الندم يوم القيامة على أكل الحرام: 16
8- الندم يوم القيامة على مصاحبة أصحاب السوء: 18
9- الندم يوم القيامة على موالاة الكافرين والمنافقين والظالمين: 19
10- الندم يوم القيامة على ظلم الناس: 20
11- الندم يوم القيامة على تضيع الأوقات في الدنيا: 23
من مشاهد الحسرة والندامة: 28
أولًا: الحسرة والندامة عند خروج الروح: 28
ثانيًا: مشاهد الحسرة والندامة يوم القيامة: 29
ثالثًا: الحسرة والندامة عند تطاير الصحف: 30
رابعًا: الحسرة والندامة عند مجيء جهنم: 30
خامسًا: الحسرة والندامة يوم القيامة لكل من اتبع الشيطان: 31
سادسًا: ندم وحسرات أهل النار: 32
الخاتمة 38
الفهرس 39